الخطاب المنقبي وصياغة الحدث التاريخي "غياب الأمن"

"غزو تلمسان وحصاراتها خلال العصر الزياني أنموذجا

آمال لدرع

المدرسة العليا للأساتذة ❖ قسنطينة❖الجزائر

ملخص

يعنى النص المنقبي بتدوين سيرة الولي الصوفي، وبنشر شمائله وصفاته المثالية وذكر أخبار ولايته وكراماته... هذا النص كخطاب منقبي يعمل على تسجيل الحدث التاريخي في إطار عنايته بسيرة الولي، أي من خلال تدخل الولي وإقحام فاعليته الاجتماعية في بناء هذا الحدث. لهذا تبنى الخطاب المنقبي الخاص بالفترة الزيانية، في إطار إعادة بناء الحدث التاريخي منقبيا مشروعية النمط الأوليائي الذي جعل من حدث "غزو تلمسان خلال العصر الزياني" يدخل في نطاق الحياة اليومية للأولياء الذين اضطلعوا بمهمة حماية المدينة وصد غزوها، ومواجهة الانعكاسات الاجتماعية المترتبة عنها، سواء كان ذلك بمساهمة فعلية واقعية، أو خارقة "كرامية". ضمن هذا المنحى كان للخطاب المنقبي دوره في كشف جانب مهم من الحدث التاريخي في جوانبه وحيثياته الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: المناقب، الصوفية، الحدث التاريخي، غزو تلمسان

Abstract

The hagiographical narrative of an edifying intention, concerning a saint, that is, a given human being as historically real and as highly virtuous. The author of the hagiographic narrative inscribes the historical event "the invasion of Tlemcen during the Zianid era" through the intervention of the Wali in the event on the Axialism of the Wilaya to defend the city, prevent invasion and all its consequences, and the social efficiency and dignity of the Wali. In this perspective, hagiographical discourse played an important role in discovering the historical aspects of the social event.

***Keywords**: hagiography Sufism, historical event, Tlemcen invasion*

يعنى النص المنقبي[1] بتدوين سيرة الولي الصوفي، وينشر شمائله وصفاته المثالية ويذكر أخبار ولايته وخوارقه وكراماته... سنحاول في هذه الدراسة مقاربة بعض نصوص الخطاب المنقبي ضمن مدونة المناقب في المغرب الأوسط، في نظرتها وصياغتها للحدث التاريخي المتعلق بغياب الأمن: "غزو تلمسان وحصاراتها خلال العصر الزياني أنموذجا"، والتي لا تجاري فيها بقية نصوص الخطاب التاريخي التقليدي، وكيفية بلورتها له عبر إقحام ظاهرة "الولاية الصوفية" في صميم بناء الحدث التاريخي.

يعين خطاب النصوص المنقبية على تحسس الفترة التاريخية والأحداث والأوضاع الاجتماعية من الداخل، لما يرصده من مشاهد حية عن الحياة اليومية للمجتمع والناس، وعن ظروفهم المعيشية ضمن التأريخ لسيرة الولي.

فكيف كان لهذا الخطاب دوره في كشف وتعرية الحدث التاريخي؟

كيف ا رتبط ذلك البناء المناقبي لحدث غياب الأمن، بالفاعلية الاجتماعية للولي؟

أي: إلى أي مدى حاولت نصوص هذا الخطاب خلق إطار مغاير لبناء حدث غياب الأمن، مرتبطا بشخص الولي وبعده الخارق من جهة، ومرتبطا بالفئات الاجتماعية وواقعها الطبيعي المادي من جهة ثانية ؟

وكيف عملت بعض تلك النصوص المنقبية على إعادة صياغة الحدث في تحوير لبعض الحيثيات، وتعارض مع الرواية التاريخية ؟

هذه مجموعة أسئلة وإشكاليات سنحاول الإجابة عنها من خلال هذه الدراسة.

أولا: الخطاب المنقبي وحدث "غزو تلمسان"، بين السياق الحدثي و بعض آليات الصياغة المنقبية.

الأكيد أنّ حالة غياب الأمن شبه الدائمة في المغرب الأوسط، خلال العصر الزياني، قد خلّفت واقعا متأزما، يشهد انهيارا على مستوى الأمن النفسي والاجتماعي، فمشاهد الغزو والحصارات التي عرفتها مدينة تلمسان جراء صراع الدولة الزيانية مع دول الجوار

كالحفصيين والمرينيين، أو مع العالم المسيحي، وما خلفته من مناظر الاضطراب والقتل والهدم، التي كانت تهدد كل أفراد المجتمع الزياني كل حين، وتراكم الانعكاسات الاجتماعية لتلك المظاهر، كلها عوامل ساهمت في بناء واقع مرير، انعدمت فيه سبل الحماية وغاب فيه الشعور بالأمن إزاء ما تشكله من تهديد.

ولعلّ المصادر الأسطوغرافية التقليدية، التي احتفظت ببعض المشاهد عن هذا الواقع، قد اهتمت بالجانب السياسيو-تسجيل ما تعلق بالسلاطين والأمراء وصراعاتهم، في حين أولى خطاب المناقب اهتمامه بالتأثيرات الاجتماعية لتلك الأحداث، من خلال تدخلات الولي أو الصوفي في الحدث لصالح فئات المجتمع المتضررة.

الواقع أن ظاهرة غياب الأمن الدائمة، وما أفرزته من مشاكل وأزمات اقتصادية واجتماعية ونفسية، أسهمت في رسم المعالم والشروط التاريخية لتعاظم مكانة الولي واتساع قاعدة اللاجئين إليه، هذه التي زكتها تآليف المناقب وسير الأولياء والصوفية، فكان لها دورها الحاسم في بعض الأحيان في ترسيخ ثقافة الاعتقاد في أهل التصوف والولاية، حين فتحت مجالات واسعة لتدخل هؤلاء بالفعل والرمز، والتمويه أحيانا، لتصحيح الأوضاع ومجابهة بعض ما أنتجته ظاهرة غياب الأمن وأحداثها وما أفرزته من انعكاسات وآثار[2]. وبناء على الصورة الخيرة للأولياء والمتصوفة - سواء كانت واقعية أو وهمية- والأدوار الاجتماعية التي اضطلعوا بتنفيذها، وارتباطها بالوظيفة النفسية التي كانت للممارسات الغيبية والماورائيات في ذهنية الإنسان المغربي، وواقعه خلال هذه المرحلة، لم يتردد الخطاب المنقبي في صياغة الدور الحيوي للأولياء في مواجهة أحداث غزو تلمسان وحصاراتها خلال العصر الزياني.

لقد تبنى الخطاب المنقبي المتعلق بأحداث غياب الأمن: غزو تلمسان وحصاراتها خلال العصر الزياني، مشروعية النمط الأوليائي الذي جعل من هذا الحدث يدخل في إطار الفاعلية الاجتماعية للأولياء، أونطاق الحياة اليومية للأولياء الذين اضطلعوا بمهمة حماية المدينة والدفاع عن أهلها وتطلعاتهم، ونوعا من التأويل الذي جعل بعض أحداث الظاهرة تدخل في نطاق الخارق وتصرف الأولياء "الكرامي"، لنتبين أن صلة الكرامة[3]-

ضمن الخطاب المنقبي ـ بالحدث ليست حيادية.

I - إقحام الخطاب المنقبي للفاعلية الاجتماعية للأولياء في الحدث:

أشكال تدخل الولي في الحدث.

تعتبر الفاعلية الاجتماعية للولي المكون الأساسي لاستيراتجية الخطاب المنقبي في بناء الحدث التاريخي، إذ ارتبطت مكانة الولي في المجتمع بمدى نجاعة ولايته، أي قدرته على تحقيق الحماية وإفشال الغزو والحصارات ومجابهة الانعكاسات الاجتماعية المترتبة عنها. فكيف عكس ذلك خطاب المناقب عبر نصوصه المختلفة التي حاولت صياغة الأحداث وبلورتها حسب منظور الخطاب ومنطقه الداخلي، في أشكال متعددة لتدخلات الولي في الحدث وصيغ متشابهة في الرواية ؟

تفيض نصوص الخطاب المنقبي بنماذج كثيرة، تصور أشكال تدخل المتصوفة والأولياء في أحداث غياب الأمن من جراء غزو مدينة تلمسان وحصاراتها المتكررة، وفاعليتهم في التخفيف من وطأتها برسم أدوار نموذجية، تنحل عقدة الرواية فيها بتحقيق إفشال غزو المدنية وحصاراتها، أو المساهمة في إبرام الصلح، وكذا الوقوف إلى جانب المستضعفين بإيجاد الحلول للظواهر الاجتماعية والاقتصادية المترتبة عنها كالمجاعات وارتفاع الأسعار، ومقاومة سياسة فرض الضرائب، وغيرها... ولا يخلو منها الإحالة على واقع التاريخي، فهي إنما تدرج في سياق تاريخي يحاول أن يثبت واقعيتها.

1ـ الخطاب المنقبي وأشكال تدخل الولي في أحداث الغزو الحفصي لتلمسان:

أـ دور الولي في إفشال الحملات الحفصية على تلمسان:

أورد ابن مريم[4] روايات ونصوصا متشابهة عن حملات الحفصيين لتلمسان، اختلط فيها التاريخ بالكرامة، وانتهت الأمور حسب هذا المصدر وخطابه، إلى توبة السلاطين المغيرين بعد ما تبين لهم أنّ المدينة تتمتع بحماية أوليائها، أمثال: "الحسن بن مخلوف" الشهير "بأبركان" و"عبد الله بن منصور الحوتي" وغيرهما.

ـ إفشال حملة السلطان الحفصي أبي فارس بالأداء الكرامي للصوفي:

أورد ابن مريم هذا النص ليبرز فيه إفشال الولي الحسن أبركان (ت857هـ/1453م) لغزو تلمسان من قبل السلطان الحفصي أبو فارس (796-837ه/ 1394-1433م).

جاء في النص[5]: "أنه لما نزل السلطان أبو فارس بتلمسان، وكان السلطان بها ابن أبي تاشفين [...] قاتله مع أهل تلمسان [...] فضيّق بأهلها تضييقا عظيما ورماهم بالأنفاض، وهدم المسافات [...] فهبط الشيخ سيدي عبد الرحمن السنوسي وبن عبد العزيز لشيخ سيدي الحسن، وطلبا منه أن يخرج معهما للشفاعة، فأبى وألحا عليه، فأبى فلما أكثر عليه، قال لهما الشيخ: كأنه لم يكن هنا رجل إلاّ أبو فارس، لا أخرج إليه، والله سبحانه يحكم بيننا وبينه أو كلاما قريبا من هذا، فلما رأى أبو فارس في محلته أمرا عظيما، ورأى الأولياء، يعني أولياء تلمسان قادمين، عرف فيهم الشيخ "أبا مدين" ، شتت الثلثين من جيشه، والشيخ سيدي الحسن شتت الثلث الآخر.

وقد حَدَّثَ بعضهم أنه رأى الشيخ سيدي الحسن في تلك الليلة وبيده سيف وهو صاعد نازل في مدارج البيت، فلما رأى السلطان أبو فارس ذلك تاب إلى الله ورجع عما عزم عليه، ومن تلك الليلة عرف مقام سيدي الحسن وصار يعظمه الناس كثيرا".

يبدو واضحا بناء الحدث التاريخي في هذا النص المنقبي، مدججا بفاعلية الكرامة والخوارق الصوفية، التي ساهمت بطريقة ما في رسم معالم دور الولي في توفير الحماية للمدينة وأهلها، من الغزاة والدخلاء والإعلاء.

وبالإضافة إلى طابعه الغرائبي المبني على قدرة الخارق للولي الصوفي، يبدو النص فقيرا من حيث المحددات التاريخية لحدث الغزو الحفصي لتلمسان، فما عدا الإشارة إلى اسم السلطان الحفصي الغازي "أبو فارس" والسلطان الزياني "ابن أبي التاشفين" (827هـ-831هـ/1423م-1427م)[6]، والمعروف تاريخيا بابن الحمراء، فإننا نفتقد المعلومات الخاصة بسبب الغزو ودوافعه، وتاريخ حدوثه، ويمكن ترميم النص بما تشير إليه النصوص التاريخية إلى بعض أدوار الصراع الحفصي الزياني الذي انتهى بسيطرة أبي فارس عبد العزيز على تلمسان، وتعيينه لمحمد بن أبي تاشفين بن الحمراء حاكما عليها مواليا له[7]. لكن بعد أن امتد نفوذ السلطان الحفصي من تونس إلى الأندلس[8]، رجع محمد

بن الحمراء وخلع الطاعة لبني حفص، فكانت الحملة الحفصية لإعادة أبي مالك إلى عرش تلمسان على شرط الخضوع لأبي فارس.

يبقى أنّ الملفت في هذا النص كخطاب منقبي هو الإشارة إلى الجانب الاجتماعي من الحدث، بمعنى الإشارة إلى التأثيرات الاجتماعية للغزو الحفصي لتلمسان بقول المؤلف: "فضيّق بأهلها تضييقا عظيما ورماهم بالأنفاض، وهدم المسافات"، وكذا الإشارة إلى محاولة الوساطة أو "الشفاعة"، كما يسميها الخطاب المنقبي من قبل بعض علماء وشيوخ المدينة كـ"الشيخ سيدي عبد الرحمن السنوسي وابن عبد العزيز". يتضمن هذا النص، بالرغم من فراغاته التاريخية المتعددة أو فقدانه لكثير من الحلقات في بناء الحدث ضمن السياق التاريخي، من الإحالات على الواقع الاجتماعي، ما يجعل النص بالرغم من ذلك البناء الكرامي الذي يغلف الحدث، أقرب إلى تدوين التاريخ الاجتماعي، وكأنّ هذا الخطاب بتصويره لفاعلية الولي الاجتماعية ودفاعه عن العامة ضد سياسة الغزو الحفصي، وتعبيره عن رغبة المجتمع الزياني في فشل هذه الحملة والحصار لما تسببه أو تحمله من آثار وخيمة على المجتمع، يكشف بطريقة ما انحياز هذا الخطاب للتأريخ للفئات الاجتماعية العامة، أو الطبقات الدنيا في مقابل انحياز النص التاريخي في التأريخ للسلطة السياسية أو الطبقة الحاكمة.

ـ إفساد الصوفي عبد الله بن منصور لحملة السلطان الحفصي:

يتحدث هذا النص عن الصوفي عبد الله بن منصور (عاش إبان القرن 9هـ/ 15م)، وكيف استغل قدرة أدائه الكرامي من أجل إفساد محلة السلطان الحفصي الغازي، ومن ثمة إفشال غزوه لتلمسان، وحماية البلد وأهلها من شر الوقوع تحت وطأة الغزاة والدخلاء[9]، ومع أنّ السلطان الحفصي قد نجح في النزول إلى المدينة حسب ما ترويه النصوص التاريخية، فإنّ الخطاب المنقبي يواصل تصوير البعد الخارق والكرامي لفعل الأولياء، من خلال الإصرار على مبدأ حمايتهم للبلد من الغزاة، حتى وهم أموات، فالنص يذكر أنه كان على كل باب من أبواب مدينة تلمسان ولي أو بالأحرى قبر ولي يحرسها !

جاء في النص: "ثم إن سلطان تونس نزل على تلمسان، وقال لوزرائه: من أين ندخل البلد، فقالوا من أين تريد، قال لهم: كم من باب للبلد، فعددوها له، فقال باب الجياد من عليه من الأولياء ؟ قالوا: سيدي أبو مدين؛ وباب العقبة من عليه ؟ قالوا أحمد الداودي؛ وباب الزاوية من عليه ؟ قالوا: سيدي الحلوي."[10]

وتنتهي مشاهد النص بانحلال عقدة الحدث، بتوبة السلطان الحفصي الغازي ورحيله عن تلمسان: "والسلطان يصيح أنا تائب لله تعالى، أنا تائب. فرفع الشيخ (أي سيدي عبد الله بن منصور) الضرب عن السلطان وصار الشيخ يقول من تاب، تاب الله عليه [...] فلما تاب السلطان ارتفعت الظلمة والريح والسحب وطلعت الشمس، وقال الشيخ للسلطان: ترحل [...] والله إذا ما رحلت في هذه الساعة ما تربح، ثم ارتحل في تلك الساعة لواد يسر."[11]

يتشابه هذا النص مع النص السابق من حيث طابعه الكرامي وافتقاره للمحددات التاريخية، بل إنه لا يفصح حتى عن اسم السلطان الزياني الذي طرقت الحملة الحفصية تلمسان في عهده، ولا اسم السلطان الحفصي الغازي. إضافة إلى عدم تحديد تاريخ الحملة، ولا أسبابها ودوافعها، ولعله يقصد بها حملة السلطان الحفصي، أبو عمرو عثمان سنة871هـ/1466م، إلا أنه يعبّر عن رغبة المجتمع الزياني وأهل تلمسان تحديدا في التخلص من هذا الغزو وتجنب آثاره المدمرة، فالحماية التي عبّر عنها الخطاب بتوظيف الفعل الكرامي الخارق للصوفية والأولياء الأموات، إنما يعكس في حقيقته رغبة ذلك المجتمع ويعكس آماله وتطلعاته، ومع ما يمكن اعتباره من مدلولات النص عن ذهنية المجتمع والمتخيل الجماعي الذي كان يجمع على الاعتقاد في الأولياء والصوفية وقدرتهم على حماية المدينة حتى بعد موتهم، بما يعبّر عنه جاك بيرك J. Berque بـ"الأموات يحكمون"، فإنّ الأبرز في هذا النص هو كشفه لجانب من عمران المدينة المتعلق بالأبواب والقبور والأضرحة، إذ يشير إلى عدد أبواب المدينة وأسمائها: باب الجياد وباب العقبة وباب الزاوية. وقبور الأولياء وأضرحتهم التي أقيمت عندها، وأثر هذه تلك الجغرافية المقدسة في السلوك الاجتماعي وبعض الممارسات الطقوسية المتعلقة بإيمان المجتمع على

قدرة هذه الفضاءات المقدسة على دفع الخطر عن المدينة.

ب_ المساهمة في إبرام الصلح بين السلطة الزيانية والسلطة الحفصية:

تبرز بعض النصوص المنقبية دور الولي الصوفي كوسيط "ديبلوماسي"، أي مبعوث سلطاني لإبرام الصلح بين دولة بني زيان ودولة بني حفص، ومن الأمثلة على ذلك رواية أوردها ابن قنفذ في مؤلفه المنقبي "أنس الفقير وعز الحقير"[12]، على لسان جده للأم الولي يوسف بن يعقوب الملاري (ت 764 هـ/ 1362 م) وهو أحد أشهر أولياء قسنطينة في عصره، يتحدث فيها عن مهمة صلح بين السلطان الحفصي والسلطان الزياني بقوله: "كلفني السلطان أمير المؤمنين أبو يحيى أبو بكر (718-747 هـ/ 1318-1346 م) أن آخذ في الصلح بينه وبين أبي حمو صاحب تلمسان"[13].

وإن لم يكشف النص تاريخ هذه الوساطة التي لا نعثر على تحديد زمنها في كتب التاريخ أيضا، إلا أنّ الملفت هو إبرازه لفاعلية الصوفي الاجتماعية بعيدا عن إطار الخارق والكرامة، إضافة إلى توافقها مع بعض نصوص التاريخ والرحلة في إبراز دور الوساطة هذا للأولياء، ففي سياق مماثل تورد نصوص التاريخ والرحلة كالزركشي[14] وعبد الباسط بن خليل[15]، مهمة الوساطة لإبرام الصلح بين السلطان الزياني محمد المتوكل والسلطان الحفصي أبي عمرو عثمان، لكي يكفّ عن تلمسان، مقابل عقد البيعة له عن صاحبها ودخوله تحت طاعته، قام بها الشيخ الورع الصالح أبو العباس أحمد بن الحسن، والفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الشيخ الفقيه قاسم العقباني، "فقبل إنابتهم ولم يحرم إجابتهم، فعقدوا على أنفسهم عقدا بالبيعة وانصرفوا إلى بلدهم"[16]. وكان ذلك بتاريخ 866-867 هـ/ 1461-1462م، هذه الرواية إضافة إلى تأكيدها لدور الوساطة السياسية لشيخ صوفي أو ولي من أجل رفع الحصارعن تلمسان، فإن مشاركة فقيه أيضا في الوفد إلى جانب الولي، تؤكد التعاون والتنافس بين الفقهاء والأولياء في المغرب الأوسط، التي لم تغفلها النصوص المنقبية، لكن ضمن إطار أوسع من الحديث عن الغزو الحفصي.

2ـ الخطاب المنقبي و أشكال تدخل الولي في أحداث الغزو المريني:

أ- دور الولي في إنهاء الحصار ورفع المعاناة عن أهل تلمسان:

لا نعدم الدلائل من الخطاب المنقبي، ما يكشف انسجام الأولياء والمتصوفة مع موقفهم المتعاطف مع المتضررين من الغزو والحصارات، وعملهم على التخفيف من مآسي ذلك عن العامة وفئات المجتمع المتضررة، ذلك ما يوضحه النص المنقبي الذي أورده ابن قنفذ في كتابه "أنس الفقير" عند حديثه عن الشيخ الولي عبد الرحمن أبي زيد الهزميري، الذي شق عليه ما تكبده أهل تلمسان من مشاق ومعاناة الحصار، جراء الحصار الطويل الذي ضربه أبو يعقوب يوسف[17] (698-706هـ/1298-1306م) [18] عليهم، فـ"رحل من بلده أغمات لقضاء الحاجة من أمير المؤمنين [...] ونيته باطنا صرفه عن ذلك الحصار، ويكف حصره عليهم لشدته حتى بلغ ثمن الدجاجة عشرة دنانير ذهبا للقوت، لا للدواء، وللفار ثمن معتبر، فلم يقبل منه فرجع إلى فاس، ونزل بجامع الصابرين [...] فبعد أيام قتل السلطان أبو يعقوب وغرب جيشه"[19].

ومع أنّ النص التاريخي يشير إلى أنّه لما كان يوم الأربعاء ذي القعدة، سنة 706هـ/1306م دخل الخصي سعادا على السلطان أبو يعقوب يوسف وهو نائم وطعنه في بطنه مشيرا إلى الكرامة التنبؤية للصوفي الهزميري "ولما يئس منه قام عنه مغضبا، وقال يجيء سعادا يقضي هذا"[20]. إلاّ أن الخطاب المنقبي يجعل من وعيد الولي"الهزميري" السبب الحقيقي في إنهاء الحصار، وما الخصي سعادا إلا محقق له، فالملفت في نص ابن القنفد والذي أورده التنبكتي أيضا نقلا عنه، عدم الإشارة أو التعرض لحادثة طعن السلطان من قبل الخصي سعادا، ولعلّ ذلك تأكيد لفعالية وعيد الهزميري، بعد دعائه على السلطان "فرجع إلى فاس ونزل بجامع الصابرين [...] وبعد أيام قتل السلطان أبو يعقوب، وغرب جيشه بسلطان آخر، فقال له خديمه ظنا منه أنه ما أقام إلاّ ليرغب الله في الفرج: مات السلطان أبو يعقوب، ففرج الله على تلمسان، فباسم الله نأخذ في الحركة.[21].

لا يختلف هذا النص المنقبي عن النصوص التي تتوخى إدراج الخارق والكرامة في

الفعل الصوفي، فالمستخلص منه أن المعاناة رفعت عن أهل تلمسان، بتدخل من الصوفي وتحقيق الكرامة في وعيده، ضد السلطان الذي لم يمتثل لطلبه.

ويبدو أنّ النص يورد بعض الإشارات التاريخية لحدث الحصار المريني، من دون التركيز على الحيثيات الأساسية والتفاصيل التاريخية للحصار، الذي أشارت إليه العديد من النصوص التاريخية، إذ سيّر السلطان المريني يوسف بن يعقوب (635-706هـ/1237-1306م) نحو تلمسان حملته الأخيرة سنة (698هـ/1298م) التي انتهت بالحصار الطويل المشهور، وقام فيها ببناء مدينة جديدة غرب تلمسان سماها المنصورة، ليشدد بها الخناق على مدينة تلمسان وأهلها، ثم جعلها عاصمة سياسية وإدارية واقتصادية بديلة عن تلمسان مدة الحصار التي قاربت تسع سنوات[22].

إنما يهتم النص المنقبي بشكل أكبر بذكر المخلفات الكارثية للحصار كشدة الغلاء، أي الانعكاسات الاجتماعية والاقتصادية لهذا لحدث. فهو يقول: "ويكفي حصره عليهم لشدته حتى بلغ ثمن الدجاجة عشرة دنانير ذهبا للقوت، لا للدواء، وللفار ثمن معتبر"، مما يؤكد فكرة اهتمام النص المنقبي بتدوين الحدث التاريخي في مظاهره الاجتماعية وما تعلق به من التأثيرات على فئات المجتمع من العامة.

ب- تدخل الولي في مقاومة ظاهرة الجوع أثناء الحصار:

- خرق الحصار المريني بتوفير بعض المرافق والطعام:

لا تفتأ الروايات المنقبية تتحدث عن دور الأولياء والصوفية في التخفيف من ظاهرة الجوع أثناء أحداث الغزو والحصارات. ولعلّ أبرز الأمثلة على ذلك ما أورده كل من ابن مرزوق وابن مريم، عن حادثة خرق الصوفي أبو العباس أحمد بن مرزوق للحصار المريني الطويل (698-706هـ/1298-1306م) لمدينة تلمسان من قبل السلطان أبو يعقوب يوسف، تحدثنا كل من الروايتين بتقارب شديد في الصياغة واللفظ[23] عن تحدي هذا الولي الصوفي لقرار السلطان المريني وإدخاله لبعض المرافق والطعام لأهل المدينة المحاصرة، جاء في النصين: "جرت لي حكاية رأيت أن أذكرها هنا وهو أنه كان له رجل من خدام والده، يتردد إليه بالمرافق للبلد، وهي محصورة ويبعث هو لأخته ولخاله بعض المرافق،

وكان السلطان أبو يعقوب قد هدر دم من يوجد داخلا، أو عرف منه ذلك، أو وافق عليه، أو علم به ولم يرفعه، وقتل على ذلك خلقا من كبار بني مرين وغيرهم [...] فخرج خارج يوما فأتبع وسقط له كتاب يدفع بيد أحمد بن محمد بن مرزوق، وباطنه من خاله إليه، يعرفه أنه وصله وعاء السمن الذي بعثه يوم كذا، وقبله كذا، وبعده كذا، مع الذي عوايده أن يصل"[24].

يشير النصان إلى أهم المواد الغذائية التي كان يوفرها هذا الصوفي لأهله وهي "السمن". وبالرغم من طابع التحدي للسلطان المريني الذي يحرك أحداث الرواية المنقبية في خرق الصوفي للحصار، فإنّ الملفت هو عدم التركيز على توظيف الطابع الكرامي في الحدث، واهتمام النص المنقبي بالجانب الاجتماعي من أحداث الحصار، وتوفيره لمعلومات ومعطيات متعلقة بالحياة اليومية لأفراد المجتمع الزياني بتلمسان وواقعهم المعيشي، وكيفية مواجهتهم لآثار الحصار من جوع وارتفاع أسعار وغيرها، من خلال إبراز فاعلية الصوفي في مواجهة الجوع كواحدة من أهم الأدوار الاجتماعية التي اضطلع بها الصوفية والأولياء بالمغرب الأوسط.

ـ توفير الطعام أثناء المجاعة الكبرى:

ضربت المجاعة كبرى مدينة تلمسان جراء الحصار المريني لها، والذي امتد ما بين 698-706 هـ/ 1299-1306 م. وقد أشارت إليها عديد المصادر مبرزة نتائجها، في هذا الصدد يقول يحيى بن خلدون[25]: "واستمر عليه الحصار فتضاعف بتلمسان الجهد، ونفذت الأقوات إلا ما خطر له حتى إذا تجاوز الأمر حده، وبلغ ماؤه الزبى وانتهت قلوب المحصورين إلى الحناجر". أما شقيقه عبد الرحمن بن خلدون فيقول: "واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضاقت أحوالهم"[26]. وقد حل الغلاء جراء النقص الفادح في المواد الغذائية حتى أكل الناس الميتة والجيف والحشرات وغيرها، بل امتدت تأثيرات المجاعة إلى الخسائر البشرية[27]، خاصة وأنها شملت فترة زمنية طويلة. ويأتي توفير الطعام في هذه المجاعة حسب النص المنقبي بتوفير الصوفي ابن مرزوق للطعام لأهل المدينة عبر وليمة عرسه جمع فيها فئات المجتمع. حيث رزق الناس بعد أزمة الجوع الشديدة. جاء في

النص: "وكان الطعام الذي جرت عوائد الناس بعمله في السابع يعمل، وخرج أخوه وأصحابه لاستدعاء الناس [...] والطعام قد تم طبخه، فخرج أهل تلمسان للحين، فكان ذلك رزقهم [...] بعد حصر تسعة أعوام"(28).

كما في النصوص السابقة، لا يبدو اهتمام الرواية المنقبية بالتفاصيل التاريخية للحصار المريني، بقدر ما تهتم بالآثار الاجتماعية المترتبة عنه، ضمن قاعدة أساسية لهذا الخطاب، وهي إبراز فاعلية الولي الاجتماعية في بناء الحدث.

الأكيد أنّ هذه المجاعة كانت مناسبة لفئات المجتمع الفاعلة، خاصة منهم الصوفية والأولياء، لمد يد المساعدة للتجاوز ظاهرة الجوع، من ثمة عملوا على إغاثة المتضررين وإطعام المتضورين جوعا، وكان ذلك عبارة عن مراقي في سلم الولاية، صنف على أساسها المطعمون من الأولياء ضمن أقطاب الطبقة الأولى(29). ومن مميزاتهم حسب البادسي والحضرمي أنهم "يشفقون على يتامى المسلمين، ويطعمون المسكين، ويفرجون كروب المعسرين"(30)، ومن الشواهد التي تؤكد ذلك التخريج، ما بلغه الشيخ أبو يعزى من درجات مميزة في سلم القبطانية(31)، فلما سُئل عن سر ذلك أجاب من دون تردد: "بإطعام الطعام"(32). وبناء على ذلك اهتم الأولياء في المغرب الأوسط وغيرهم، بتوفير الطعام للجياع وقت الحاجة إليه. وهذا ما عكسه الخطاب المنقبي في تناوله لأحداث الحصار المريني لتلمسان دون الحاجة إلى إدراج الخوارق.

ج- استغلال أحداث الحصار لمعاقبة جابي الضرائب للسلطة الزيانية:

توظف بعض الروايات المنقبية أحداث الحصار المريني لإدانة بعض مظاهر السياسة الضرائبية المتعسفة للسلطة الزيانية، إزاء مختلف فئات المجتمع كالتجار والعامة، ذلك ما يشير إليه هذا النص المنقبي لابن مرزوق الخطيب، الذي وصف فترة حكم السلطان الزياني أبي تاشفين (718 – 737 هـ/1318 – 1335 م) بالظلم والاستبداد لارتباطها بجباية الضرائب، ذلك أن يحيى بن إبراهيم بن علي العطار، الذي كان عاملا ظالما، أوعز للسلطان الزياني بهدم ضريح أبي مدين بالعبّاد، لمنع تحايل التجار في دفع الضرائب احتماء بسلطة وبركة الضريح، مؤكدا له أنّ الجبايات أو "المجابي قد ضاعت بسبب ذلك"،

ويقحم هنا الخطاب المنقبي فاعلية الصوفي أحمد أبو العباس بن مرزوق بالدعاء الترهيبي على العامل الظالم، حيث دعا عليه بالموت ميتة تتحدث بها مشارق الأرض ومغاربها، فكان من شأن ذلك أنه لما حاصر السلطان المريني أبو الحسن تلمسان سنة 737 هـ/ 1335 م، عاقب السلطان الزياني، أبو تاشفين، عامله يحيى بن إبراهيم العطار الذي لم يجد ما يقدم له من الأموال، بقذفه بالمنجنيق ردا على المنجنيق الذي نصبه السلطان المريني(33).

يحيل هذا النص المنقبي إلى بعض التفاصيل التاريخية لأحداث حصار أبي الحسن المريني لمدينة تلمسان الذي جاء كما يوضحه النص التاريخي إثر الحملة المرينية التي كانت في أواسط سنة (735هـ/1334م)، ردا على غزو أبي تاشفين الزياني (718هـ-737هـ/1318م-1337م) لتازا، واكتساحه لمزارعها وحقولها، فقام على إثرها السلطان المريني أبو الحسن (731هـ-749هـ/1330م-1348م) بغزو موانئ تلمسان الساحلية بأسطوله(34). لكنه لم يوفق في اقتحامها، مما دعاه إلى حصارها إلى غاية 737هـ/1336م ونصب المنجنيق ضدها لكنه لم يستطع اقتحام الأسوار إلا بعد قطع الماء على أهلها فكان دخوله إلى تلمسان بتاريخ 28 رمضان سنة 737هـ/1336م بعد أن تمكن جيشه من اختراق الأسوار ودخول المدينة(35).

لكن الأهم بالنسبة للنص المنقبي هنا هو إظهاره لموقف الولي المتعاطف مع الفئات المتضررة من سياسة فرض الضرائب للسلطان الزياني أبي تاشفين، فهو يكشف عن دور الأولياء في الوقوف إلى جانب المجتمع في رفض هذه السياسة ومقاومتها والاحتجاج ضدها، حيث لعب الصوفية دور اجتماعي مهم في رفض وإدانة سياسة فرض الضرائب المتعسفة، وإن كان ذلك عبر توظيف النص للخارق والكرامة الصوفية، فإنّ النص يبدو بالأساس كمعبّر عن حالة المجتمع الرافض لهذه السياسة التي أثرت سلبا على أوضاعه الاقتصادية.

3ـ الخطاب المنقبي و أشكال تدخل الولي في أحداث الغزو الإسباني لتلمسان:

أـ طمأنة أهل تلمسان بعدم عودة النصارى:

في تصوير لنص آخر من نصوص المناقب، تظهر رغبة المجتمع الزياني في عدم عودة

النصارى إلى تلمسان، واللجوء إلى الصوفي لتحقيق ذلك، يكشف ذلك ما أورده ابن مريم[36]، عن مشاورة بعض أهل تلمسان للصوفي حدوش بن تيرت العبد الوادي في شراء إحدى الديار بدل كرائها «يا سيدي حدوش هل نشتري الدار، لأنّنا نسكن بالكراء، لو كان جميع ما أعطيناه في الكراء جمعناه، لاشترينا به دارين أو ثلاثا، لكن خفنا من النصارى أن يرجعوا لتلمسان ثانيا، فأتيناك نشاورك على هذه»، فأشار عليهم الصوفي بشراء الدار، مطمئنا إياهم بعدم دخول النصارى إلى تلمسان إلا مرة واحدة ككرامة تنبؤية «اشتروا الدار فإن النصارى لا يدخلون تلمسان إلا مرة واحدة [...] اشتروا الدار تربحوا لا خوف عليكم»[37].

هذا النص المنقبي المتعلق بالإشارة للغزو الإسباني لتلمسان، مع أنه لا يشير للتواريخ أو المجال الزمني للحدث ولا لحيثياته المتعلقة بالصراع بين أفراد البيت الزياني ودور ذلك في دعم الإسبان لطرف على طرف وتسببه في الاحتلال الإسباني للمدينة[38]، ولا يكشف عن مصطلح الإسبان تحديدا وإنما يبدي مصطلحا عاما هو " النصارى" لما في الأمر من صبغة دينية، وكأن مصطلح " نصارى " هنا يفي بالغرض أكثر من حيث التعبير عن هوية الصراع بين الزيانيين والإسبان، باعتباره صراعا دينيا بين المسلمين والمسيحيين. إلا أنه ينحاز بطريقة ما إلى الفئات العامة من أهل تلمسان، ويعبّر بلسان حالهم عن توقهم إلى تحرر المدينة نهائيا من الاحتلال الإسباني، وإن كان ذلك لا تعضده الرواية التاريخية بسبب عودة الإسبان وتكرار احتلالهم للمدينة، فإنّ الملفت هو الإشارة إلى حالة الاضطراب والقلق النفسي التي يعانيها أهل تلمسان خوفا من عودة الاحتلال الإسباني. لذا فتدخل الولي هنا هو عبارة عن دعم نفسي لأهل تلمسان، فكأن النص المنقبي يعبّر عن حال أهل تلمسان بلسان الولي، الذي هو عبارة عن داعم نفسي أساسي في تطورات حدث الغزو الإسباني لمدينة تلمسان. أي يكشف هذا النص عن الوظيفة النفسية للولي التي كانت تتجلى عبر بعض الممارسات الغيبية والماورائيات التي تجد لها مجالا واسعا في ذهنية الإنسان في المغرب الأوسط، وواقعه خلال هذه المرحلة من العصر الوسيط.

ما تردد من خلال النصوص المدرجة، بعملية متكررة هو إصباغ صورة الولي الحامي

للبلاد والمجتمع والدافع للخطر في جل فاعليات الولي الاجتماعية ضمن أحداث غزو تلمسان وحصاراتها.وأنّ الصوفية والأولياء لم يكونوا فئة استسلامية أو صنف محايدا، وأنّ إعادتهم للتوازن في إطار طرح البديل عن ذلك الواقع المتأزم،كان مرتبطا بموقعهم في المجتمع، وبمواقفهم من مختلف القضايا والتأثيرات الاجتماعية والاقتصادية التي تعرض إليها المجتمع جراء الغزو والحصارات، وبخاصة مقدرتهم "الغيبية وهمية" كانت أم حقيقية، على حل كل المشاكل والأزمات بواسطة التدخل الفعلي لهم أولكراماتهم.

وقد لاحظنا من خلال محاولة تحليل النصوص المنقبية المدرجة، وربطها بسياقها الحدثي التاريخي، ارتباط التصوير المنقبي للحدث التاريخي "غزو تلمسان وحصاراتها"، بالإحالة على جانب الاجتماعي من الحدث أو التركيز على الآثار والانعكاسات الاجتماعية له.

كما لاحظنا أنّ جل النصوص المدرجة لم تحفل بإيراد المحددات التاريخية لأحداث غزو تلمسان وحصاراتها، بل اقتصرت في الغالب على ذكر بعض أسماء الشخصيات التاريخية الفاعلة في الحدث، دون التركيز على ذكر المحددات الزمنية والمكانية للأحداث أو التفاصيل التاريخية. فكان الأمر يحتاج في الغالب إلى ترميم النص وملء فراغاته التاريخية بالعودة إلى المصادر التاريخية والأسطوغرافية، وذلك ما لم يمنع من الوقوف على بعض الجوانب الاجتماعية المهمة في بناء الحدث منقبيا، ولعل تلك الخصوصية هي التي تمنح هذا النوع من النصوص الأهمية البالغة في تناولها كمادة تاريخية، إذ تكشف عن جانب تاريخي اجتماعي مسكوت عنه أو مغيّب في المصادر التاريخية التقليدية.

كما بدا واضحا التركيز على إدراج الخارق، وتوظيف الكرامة الصوفية في بناء الحدث، فرغم اعتماد بعض النصوص على إظهار فاعلية الولي في الحدث ضمن إطار دور طبيعي للأولياء يتوافق مع السياق التاريخي والواقعي، فإنّ أغلب النصوص المدرجة لجأت إلى توظيف الكرامة الصوفية في بناء الحدث التاريخي، وقطعا ذلك لا يبدو مفاجئا، فمما لا شك فيه أنّ "الكرامة" في هذا الصنف من التآليف، تشكل قطب الرحى الذي تنطلق منه كافة الاضافات المحيطة بشخص الصوفي أو الولي[39].

إن ممعن النظر في المنظومة الخوارقية التي تجلت في تلك النصوص الخاصة بظاهرة غياب الأمن، ضمن أحداث غزو تلمسان وحصاراتها، يلاحظ مدى أهمية ذلك المنحى الكراماتي الذي سيّج سير الأحداث، فجعلها متصلة بشؤون حياة المجتمع، ومدى مركزية الكرامة في "تحدي الولي للسلطة السياسية الغازية" خاصة.

للأسف ظلت الكرامة قطاعا منسيا على اعتبار أنه غطاء فكري سلوكي وثيق الارتباط بالمجال الديني، بينما هي في الواقع نتاج اجتماعي، وإفراز الأوضاع التاريخية عبرت بطريقتها الخاصة عن المجتمع، والصورة المثالية التي تراها، ولذلك لا مناص من قراءتها على بساط الأوضاع العامة، لأنها انعكاس "جيد" على أرض الواقع، ونموذج أمين للأزمة(40).

ليس من السهولة ولا من الإنصاف التسليم بأن كرامة الأولياء هي مجرد مشاهدات سحرية أو ظواهر خرافية، إذ يرى ليفي ستراوس أن الخرافة ذاتها ليست متعارضة مع الفكر العلمي(41)، كما أنها ليست عطاءَ خاصا بأنماط سحيقة من التنظيم الاجتماعي، أو حالة خاصة بالمجتمعات اللامتطورة(42)، بل هي حالة معاشة وحقيقة ممارسة، يذكرها الولي أو المريد أو صاحب الخطاب المنقبي مقتنعا، ويقدمها على أنها حصلت وتحصل فعلا(43). وهي في أصلها رواية أو حكاية مقتضبة، غير أنها في العمق ظاهرة كلية متعاضدة مع النظم والمعتقدات المجتمعية.

حينما نقول "منقبة" أو "كرامة"، فإننا ضمنيا سنتعرض إلى لغة رمزية-أيديولوجية كامنة فيها تمكّن من استكشاف الملامح السوسيولوجية والتاريخية لمراحل تاريخية وأحداث اجتماعية، ولعل ذلك ما اتضح بشكل ما، من خلال الأمثلة المنقبية التي تناولت أحداث غزو وحصارات تلمسان التي تعرض إليها المجتمع الزياني من جانبها الاجتماعي.

إنّ حضور الكرامة في تلك النصوص، كلغة تعبيرية عن لحظة توتر قصوى بين السلط السياسية الغازية وبين الأولياء، مؤشر على قوة الصوفية والأولياء وعجز أو محاولة إعجاز لتلك السلط، وما قد يشابهها من سلطة ونفوذ (نقيض أو معادٍ للسلطة الصوفية).

ومن ثمة فإنّ الصوفية والأولياء مارسوا أشكال الرد الرمزي المتمثلة في إنتاج الكرامات في مقاومة مظاهر غياب الأمن ضد تعسفات السلط الغازية.

بعبارة أخرى: إنّ إنتاج تلك الكرامات هو نوع من أشكال الرد الرمزي للمجتمع من خلال الصوفية والأولياء عبر تجليات خطاب المناقب، على أوضاع التأزم المتعلقة بغياب الأمن من غزو وحصارات وغيرها... وقد تناولت الكرامات، في أحداث غزو وحصارات تلمسان، لحظة "طرد السلطان الغازي" وعقابه بالموت أو الأوجاع أو الفشل لعدم الامتثال لأوامر وطلبات الأولياء بالرحيل عن المدن المحاصرة، وما يبدو من خلالها على المستوى التاريخي، أنها ترتبط بحملات أكبر سلاطين المغرب الإسلامي وأكثرهم رغبة في التوسع: أبو فارس الحفصي، وأبو عمرو عثمان الحفصي، وأبو يعقوب يوسف المريني، وأبو الحسن المريني.

إنّ إثارة هذا الموضوع لا تخلو من ملاحظة، يتوج بها الباحث محمد فتحة[44] موقفه أو نظريته حول أنّ المناقب وإنتاج الكرامات توظف لخدمة التيار الصوفي في منافسة السلطة السياسية، وهي أننا نقف في أغلب الأمثلة المتعلقة بغزو مدينة تلمسان على ردود فعل النصوص المنقبية سواء في: المناقب المرزوقية، أنس الفقير، نيل الابتهاج ، البستان، إزاء السلاطين الأقوياء الذين عرفوا برغبتهم في التوسع عبر بلاد المغرب الإسلامي، وهم :أبو فارس وأبو عمرو عثمان الحفصيان و أبو يعقوب وأبو الحسن المرينيان، و قد قاموا فعلا بمحاولات من أجل ذلك، وفي كل المحاولات نجد أن نصوص الخطاب المنقبي قد تعرضت لتوسعاتهم وإخفاقهم وموت بعضهم بتفعيل الأداء الكرامي، على الرغم من أن التاريخ أو الروايات الأسطوغرافية تثبت نجاحهم أو تفسر إخفاقاتهم وموتهم تفسيرا موضوعيا مخالفا. ولعل هذا ما يجرنا إلى الحديث عن دور الخطاب المنقبي والكرامة في تحوير الحدث التاريخي المتعلق بغزو تلمسان وحصاراتها.

II- الخطاب المنقبي و التحوير في بناء الحدث:

روت النصوص المناقبية التي أدرجناها سابقا حوادث متشابهة ومتماثلة عن وقوف الصوفية لصد هجمات وحصارات السلاطين الحفصيين أو المرينيين لمدينة تلمسان، كما

أشارت إلى الاحتلال النصراني الإسباني للمدينة، في تناقض جزئي وصارخ أحيانا مع الروايات التاريخية التي أوردت الحدث أو تعرضت إليه. وقد أمكننا رصد بعض التحويرات في البناء المنقبي للحدث نوردها فيما يلي:

1- الخطاب المنقبي و تحويل الهزيمة إلى انتصار في حملة أبي فارس الحفصي:

ما أورده ابن مريم في النصين اللذين سبق إدراجهما حول إفشال الصوفية للغزو الحفصي،لا يتوافق مع النصوص التاريخية والأسطوغرافية حول حملات السلاطين الحفصيين ضد تلمسان، سواء أبو فارس الحفصي أو أبو عمرو عثمان...

لأبي فارس الحفصي حملتين على تلمسان: الأولى سنة 827هـ/1424م، والثانية في 834هـ/1431م. والأكيد أن رواية ابن مريم[45] في النص الذي سبق ذكره عن إفشال حملة السلطان الحفصي أبي فارس بالأداء الكرامي للصوفي الحسن أبركان، لا يقصد بها حملة أبي فارس سنة 827هـ/1424م، التي زحف بها على تلمسان واستولى عليها، لأنها كانت ضد السلطان الزياني أبو مالك عبد الواحد (814-827هـ)[46]، بحجة أن سيرته عدوانية، وأنه سلطان متعسف متجبر، وقد انتهت بهروب السلطان الزياني عبد الواحد، تاركا تلمسان للجيش الحفصي[47]، وتعيين أبي فارس لأبي عبد الله محمد بن أبي تاشفين المعروف بابن الحمراء على عرش تلمسان.

إنما يقصد بها حملة أبي فارس سنة 834هـ/1431م ضد السلطان محمد بن أبي تاشفين (حكم في فترة أولى ما بين827-831هـ)[48]، الذي كان قد قطع الدعوة للسلطان الحفصي على منابر الجمعة[49]، ودخل في صراع مع السلطان الزياني السابق عبد الواحد، تبادلا فيه أدوار الاستيلاء على عرش تلمسان[50] إلى أن انتهى الأمر بمقتل عبد الواحد، حليف الحفصيين في هذه المرحلة على يد ابن تاشفين، واعتلائه عرش تلمسان للمرة الثانية سنة 833هـ/1430م[51].

ذلك كان السبب المباشر لزحف السلطان الحفصي على تلمسان، فكانت حملة أبي فارس سنة 834هـ/1431م للثأر لعبد الواحد والانتقام من أبي تاشفين.

هذه هي الحملة التي قصدها ابن مريم، والتي طرق فيها أبو فارس أبواب تلمسان للمرة الثانية وحاصرها حصارا محكما، أجبر فيه ابن أبي تاشفين على الفرار ليلا، تاركا عرشه وعاصمته لبني حفص بعد أربعة وثمانين يوما فقط من اعتلائه عرش تلمسان للمرة الثانية، حسب تدوين النصوص التاريخية[52].

إذن الواقعة التاريخية تؤكد انتصار أبي فارس وتمكنه من الاستيلاء على تلمسان، عكس ما روجه خطاب ابن مريم المنقبي حول قدرة الولي حسن أبركان في صد الهجوم الحفصي، ورجوع السلطان خائبا وتائبا.

2ـ تحويل استسلام مدينة تلمسانإلى فشل في الحصار الحفصي [53]:

تعوزنا المعلومات الدقيقة في نص هذا الخطاب المنقبي لابن مريم الذي سبق إدراجه، حول السلطان الحفصي المقصود بالحملة على تلمسان، فهو لا يحدد اسمه أو تاريخ حملته، هذا النص الذي يصيغ مشاهد الحملة الحفصية المحكومة بالفشل بفعل تدخل الولي عبد الله بن منصور الحوتي، من المستبعد أن يقصد به إحدى حملتي أبي فارس على تلمسان، والتي انتهت كليهما بالنجاح في الاستيلاء على المدينة كما سبق ذكره.

مع ذلك، فإننا إذا ما اعتبرنا ذلك جدلا، واستسغناه كمجرد احتمال، فإنّ عدم توافق هذا الخطاب مع المعطيات التاريخية يظل قائما، فالروايات الأسطوغرافية كما ذكرنا سابقا تؤكد نجاح السلطان الحفصي أبي فارس في الاستيلاء على تلمسان، كلما غزاها أو حاصرها[54]. وإننا نعتبر حديث رواية ابن مريم[55] عن إفساد محلة السلطان الحفصي الأولى بجبال الزان أو الزاق[56] وإفساد المحلة الثانية، ما يحيل بالإشارة أو يتوافق مع ما جاء في رواية الرحالة عبد الباسط بن خليل[57] عن تلك المناوشات بين السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان والسلطان الزياني أبو عبد الله بن أبي زيان (المتوكل) (866-873هـ/ 1463-1470م)، فليس هناك من القرائن ما يدل على حدوث مثل تلك المناوشات في حملتي أبي فارس.

ومما يرجح احتمال أن يكون المقصود بهذه الحملة، حملة أبي عمرو عثمان الحفصي على

تلمسان، ما ذكره ابن مريم في هذا النص، عن علاقة الولي الصوفي عبد الله بن منصور الحوتي، صاحب المناقب والكرامات التي أفشلت حملة السلطان الحفصي وحصاره، بالسلطان الزياني أبو عبد الله الثابتي، فهو معاصر للسلطان الحفصي أبو عمرو عثمان.

والحملة كما ترويها الأسطوغرافية التقليدية تمت بنجاح. عكس التصوير المنقبي الذي صور فشل الحملة وتوبة السلطان الغازي.

لقد نهض السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان بنفسه إلى تلمسان وأحاطها بالعساكر وآلات الحصار، وألزم الأمير الزياني أبو عبد الله بن أبي زيان (المتوكل) على الإذعان لمطالبه بعد بعض المعارك القصيرة الأمد تحت أسوار المدينة، و الاستسلام ضمن وثيقة كتابية بتاريخ 14 ربيع الثاني 871هـ/23 نوفمبر 1466[58]، فجدد له الطاعة والولاء، وقدم الاعتذارات والهدايا الثمينة لأبي عمرو عثمان الحفصي، بل وزوج الأمير الزياني أبو عبد الله ابنته البكر للأمير أبي زكرياء بن مسعود حفيد السلطان الحفصي[59].

3ـ تحويل تعدد الاحتلال النصراني الإسباني لتلمسان من عدة مرات إلى مرة واحدة

جاء في النص المنقبي الذي يعدد فضائل وكرامات الصوفي حدوش بن تيرت العبد الوادي، حديث عن مشاورة أهل تلمسان لهذا الصوفي، في شراء أحد البيوت بدل كرائها، خوفا من عودة النصارى "الإسبان" إلى تلمسان، لكنه يشير عليهم بشراء البيت مطمئنا إياهم بعدم عودة النصارى إلى تلمسان فهم «لا يدخلون تلمسان إلا مرة واحدة»[60].

لكن ما جاء على لسان هذا الولي كما أورده الخطاب المنقبي، لا يتوافق مع الأخبار التاريخية بل ويناقضها، فالمعلوم تاريخيا أن تلمسان تعرضت لأكثر من احتلال إسباني، وما يتوفر من أخبار يشير إلى ثلاث احتلالات من قبل النصارى الإسبان لمدينة تلمسان.

ـ الاحتلال الإسباني الأول لتلمسان:

كان هذا الاحتلال سنة 924هـ/1518م لمساندة الأمير الزياني المخلوع أبي حمو الثالث، الذي لجأ وهو بمدينة وهران إلى الملك الإسباني حينذاك – شارل كارلوس[61]- يستجدى المساعدة ويطلب الإعانة لإعادة عرشه، فما كان إلاّ أن وجد التعضيد الكافي من الإسبان، وهو

الأمر الذي جعله يعود إلى تلمسان، ويستولي عليها رفقة الحامية الإسبانية[62].

ـ الاحتلال الإسباني الثاني لتلمسان:

كان الاحتلال الإسباني الثاني لتلمسان في عهد أبي عبد الله محمد بن السلطان الزياني أبو سرحان الذي تولى الحكم سنة 930هـ/1524م، في فترة ضعف واضمحلال الدولة الزيانية بشكل جلي، أمام التدخل المزدوج التركي والإسباني، ويبدو أن السلطان الزياني قد انحاز إلى الإسبان ضد الأتراك، فثار السكان ضده وهزموه، ففر إلى وهران ليستنجد بالإسبان الذين أعدوا له حملة إسبانية من وهران، احتلت تلمسان وفرضت عليه معاهدة إذلال تحتم عليه أن يدفع للإسبان ضريبة سنوية، ويساعد القوات الإسبانية على التوسع في موانئ المغرب الأوسط بحجة مقاومة الأتراك[63].

ـ الاحتلال الإسباني الثالث:

على الرغم من إجماع التلمسانيين وتوحيد كلمتهم حول العاهل الزياني الجديد، وهو أبو زيان أحمد الثاني سنة 949هـ / 1542م، إلا أن الاستقرار والأمن ظلا مفقودين في تلمسان وغيرها من حواضر وبوادي المغرب الأوسط، فقد فرّ السلطان المخلوع أبو عبد الله محمد إلى وهران مرتميا في أحضان الإسبان، فقدموا له حامية عسكرية بقيادة الدوق ألفنسو دي مارتينز، فاتجه بها نحو مدينة تلمسان لكن أبا زيان كان له بالمرصاد، في مكان يعرف بشعبة اللحم وهزمهم شر هزيمة سنة 949هـ/1543م. لم ييأس أبو عبد الله محمد وأعاد الكرة مرة ثانية أو أخرى تحت مظلة الإسبان، بعدد يقدر بنحو تسعة آلاف وخمسمائة فارس من خيرة قوات الملك شارلكان، الذي أصبح يهتم شخصيا بعاصمة بني زيان، فسقطت تلمسان بيد أبي عبد الله محمد ومن معه من الإسبان، الذين نهبوا المدينة وقتلوا الكثير من أهلها أمام أنظار السلطان الجديد[64]. وكان ذلك سنة 951هـ/1544م، حيث عاثت فيها القوات الإسبانية فسادا وأحدثت في مقدساتها نكرا وفجورا[65].

الواقع في إطار معاينة تلك التحويرات التي طالت الحدث، ينبغي علينا أن لا ننسى أنّنا نتعامل مع خطاب لا يجعل بالأساس من "التاريخ" همّه المحوري، إنما يوظف

الأحداث التاريخية لخدمة غرضه العام، ألا وهو "تمجيد الرجل الديني الصوفي". ثم إنّ نصوص المناقب، وإن كانت لا تتطابق مع بقية النصوص الأخرى –كالتاريخ والرحلة - في الرؤية والغرض العام من النص وتختلف معها موضوعيا، فإنها تشترك معها في بعض الإشارات إلى الواقع أو الحدث التاريخي المصبوغ بمظاهر غياب الأمن، من حيث نسب تلك التدخلات في الحدث لهذا الولي أو ذاك... حتى يصبح فعله واقعا غير مجرد من التاريخية.

ولعل بعض تلك النصوص المناقبية المذكورة كانت تسترجع حوادث تاريخية تهم السلاطين الكبار فتحورها بهدف توظيفها في أغراض تعكس بالدرجة الأولى خطابا يخدم هيبة الصوفية وقوة نفوذهم، ووقوفهم ندا للند أمام أقوى السلاطين [66] هذا من جهة، من جهة ثانية لعله توظف الكرامة في تحوير الحدث من أجل تعزيز ثقة فئات المجتمع في الولي الصوفي، الذي يعبّر بطريقة ما بلسان حالها عن أزماتها ورغباتها وآمالها.

يمكن الاستنتاج في الأخير أنه بالرغم من اعتماد بعض النصوص المنقبية لإدراج الخارق وتصوير الحدث ضمن الفاعلية الاجتماعية للولي في إطار تفعيل الكرامة الصوفية، فإنّ البعض الآخر قد أدرج بناء الحادثة التاريخية ضمن فاعلية اجتماعية طبيعية للولي، لا تصدم منطق العقل أو تتعارض مع الواقع المحسوس، وذلك مما يجلي بعض ملامح الدور الاجتماعي للصوفية في جانبه العقلاني الطبيعي، من خلال المساهمة في إبرام الصلح في وساطة ديبلوماسية، أو المساهمة في مواجهة مظاهر المجاعة المتعلقة بالحصار وغيرها... إلا أنّ هذا لا يجعلنا ننكر دور تلك النصوص التي حوت الكرامات أو المنظومة الخوارقية، في كشف وتعرية جانب مهم من الحدث التاريخي في جانبه الاجتماعي، أي الإشارة إلى بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في حياة المجتمع الزياني التي عادة ما يغفلها النص التاريخي.

بالرغم من تعارض الرواية المنقبية مع بعض الروايات التاريخية، وتحويرها للحدث التاريخي لصالح التفوق الصوفي حتى أنها بدت غير منسجمة مع الوقائع التاريخية أو السياق التاريخي العام للحدث، الذي أكدته بعض النصوص الأسطوغرافية، إلا أنها تظل

رواية مهمة في رصد الحدث التاريخي من جوانب أخرى ورؤية مختلفة للحدث، إذ تبدي دورا تكميليا أساسيا للرواية التاريخية التي عادة مالا تهتم إلا بتسجيل التاريخ السياسي وما تعلق بالحكام والسلاطين. لهذا لا ينبغي الاكتفاء بالقول يأنّ النص المنقبي لا يهتم إلا بتمجيد الولي الصوفي، وأنّ الكرامات كجزء أساسي من خطاب المناقب، ليست سوى مجرد لغو وكلام حمقى ومخرفين، بما أنه يمكن الاستفادة منها في رصد أو سبر أغوار الحدث التاريخي في عمقه الاجتماعي.

الإحالات

(1)- تدلّ كلمة "مناقب" في الغالب الأعم على الأخلاق والفضائل والخوارق والكرامات، التي تجري على أيدي المنتسبين إلى الولاية والتصوف،كما تدل على مؤلفات تراجم ذات صبغة تمجيدية، ارتبطت بالحديث عن سير الأولياء وكراماتهم. ويمكن اعتماد هذا المعنى المزدوج الذي صارت تعنيه كلمة مناقب. (هشام عبيد: تونس وأولياؤها الصالحون في مدونة المناقب الصوفية، ، مركز النشر الجامعي، تونس، 2006،ص50.)

(2)- حميد تيتاو: الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث، الدار البيضاء، ديسمبر 2009، ص467.

(3)- الكرامة في المنظور الصوفي:"كل فعل خارق للعادة ظهر على يدي عبد ظاهر الصلاح في دينه متمسك بطاعة الله في أحواله". (العزفي (أبو العباس): دعامة اليقين في زعامة المتقين (مناقب الشيخ أبي يعزى)، تحقيق أحمد التوفيق، د.ط.، مكتبة خدمة الكتاب، د.ت.، ص23.)

(4)- ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشره محمد بن أبي شنب، وقدم له عبد الرحمن طالب، دون طبعة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م ص79-80، 136-137. يعتبر كتاب البستان لابن مريم ت (1020هـ/1610م) واحدا من أهم المؤلفات التراجمية المناقبية في المغرب الأوسط. يقول ابن مر يم(4) « أنه إذا كان مجرد حب الأولياء ولاية، فقد ثبت أن المرء مع من أحب، فكيف لمن زاد عن مجرد المحبة بموالاة أولياء الله تعالى وعلمائه، وخدمتهم ظاهرا وباطنا، يستطير أحوالهم وينشر محاسنهم في أقوالهم وأفعالهم نشرا يبقى على مر الزمان، ويزرع المودة لهم والحب في صدور المؤمنين للاقتداء بهم حسب الإمكان».ابن مريم: البستان، ص 314-315.

إنّ البستان من أهم كتب التراجم المناقبية التي أولت عناية بالمناقب والحكايات الكرامية في المغرب الأوسط والتي وفقت إلى حد بعيد في التأسيس لنمط الحكاية يعتمد على طرد الشك في حقيقة الكرامة(4).الطاهر بونابي : نشأة وتطور الأدب الصوفي بالمغرب الأوسط، حوليات التراث، ع5، مستغانم، الجزائر، 2004، ص21.

(5)- ابن مريم: البستان، ص79-80.

(6)-كانت تلك مدة حكمه في المرة الأولى، أما المرة الثانية فكانت فترة حكمه (833هـ-834هـ/1429م-1430م)

(7)-التنسي (محمد بن عبد الله بن عبد الجليل): نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، (تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان)، تحقيق وتعليق محمود بوعياد، دون طبعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1405هـ/1985م، ص236-241؛ الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، دون طبعة، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م، ص125-126.

(8)- الزركشي: المصدر السابق، ص125-126؛ برنشفيك (روبار):تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م ،ترجمة حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988م، جـ1، ص258.

(9)-ابن مريم : المصدر السابق، ص136-137.

(10)-المصدر نفسه، ص136.

(11)-المصدر نفسه، ص137.

(12)-نشر وتحقيق أدولف فور، محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب، الرباط، 1965م. يضيف ابن قنفذ بعد ذكره لهذا العنوان قوله: "في رجال من أهل التصوف أبي مدين وأصحابه" فكان الكتاب مؤلف للتعريف بالولي الشهير " أبي مدين شعيب"وأصحابه وتلامذته، في إطار ذكر سياحة ابن قنفذ الزيارية بالمغرب وملاقاته لرجالات التصوف.

(13)- ابن قنفذ : أنس الفقير، 53.

(14)- الزركشي : تاريخ الدولتين، ص 153.

(15)-الزركشي: تاريخ الدولتين، ص108؛ عبد الباسط بن خليل: الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم

Robert Brunschvig : Deux récits de voyage inédits en Afrique du nord au XV^{e} siècle Abdelbassit Ben Khalil et Adorne., la rose éditeur, Paris, 1936., p.156 .

(16)- الزركشي : تاريخ الدولتين، ص 153.

(17)-حول السلطان ينظر:

ـابن أبي زرع (علي الفاسي): الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس دار منصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972م، ص 374.

- ابن الأحمر (إسماعيل بن يوسف): روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، المكتبة الملكية، الرباط، 1411هـ/ 1991م، ص 30-31.

[18]- عن الحصار ونتائجه ينظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص386؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983م جـ7، ص 197-198؛ التنسي: نظم الدر، ص 130-135.

[19]- ابن قنفد: أنس الفقير، ص70؛ التنبكتي (أبو العباس أحمد بابا):نيل الابتهاج بتطريز الديباج، اشراف وتقديم، عبد الحميد عبد الله الهرامة، الطبعة الأولى، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس، ليبيا 1989م، ص 242.

[20]- التنسي: نظم الدر، ص134-135.

[21]- ابن قنفذ: أنس الفقير، ص70. التنبكتي: نيل الابتهاج، ص242.

[22]- يحدد ابن خلدون الحصار بثماني سنوات وثلاثة أشهر. العبر، جـ7، ص197. أما المقري فيحدد مدته بألف شهر.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دون طبعة، دار صادر، بيروت 1988م، جـ5، ص265.

[23]- ولعلّ ابن مريم (ت1014هـ/ 1605م) نقل روايته عن ابن مرزوق (ت. 781هـ/1379م)، الذي يعتبركتابه "المناقب المرزوقية من أهم وأقدم التآليف المنقبية في المغرب الأوسط.

[24]-ابن مرزوق (أبو عبد الله): المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2008، ، ص194. ابن مريم: البستان، ص28

[25]- يحي بن خلدون:بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء الأول، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400هـ / 1980م، ص210.

[26]- العبر، ج 7، ص198.

[27]- التنسي: نظم الدر، ص 132. ابن الأحمر: روضة النسرين، ص 67.

[28]- ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص197؛ ابن مريم: البستان، ص30.

[29]- عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2008 ، ص 266.

[30]- البادسي(عبد الحق اسماعيل):المقصد الشريف والمترع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد اعراب، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط،1414هـ/1993م،ص 21؛ الحضرمي (محمد بن أبي بكر): السلسل العذب، تحقيق مصطفى النجار، منشورات الخزانة العلمية الصبحية، سلا، المغرب، ص31، 46-47

[31]- عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية، ص 269.

[32]-ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي): التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، الطبعة الأولى منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1404هـ / 1984م، ص 222.

[33]- المناقب المرزوقية، ص229.

(34)- ابن خلدون: العبر، جـ7، ص227.

(35)- عن الحصار ودخول مدينة تلمسان: ينظر ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص229؛ يحي بن خلدون: بغية الرواد، جـ2، ص236؛ ابن الأحمر: روضة النسرين، ص56؛ ابن خلدون:العبر، جـ7، ص281؛ التنسي: المصدر السابق، ص145-146

(36)- البستان، ص93-94.

(37)- نفسه، ص94.

(38)- أحمد التوفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492- 1792، الجزائر، ص49.

(39)ــ محمد فتحة: النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي، جامعة الحسن الثاني عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء،1999. ص 195-196.

(40)ــ إبراهيم القادري بوتشيش: واقع الأزمة والخطاب الإصلاحي في كتب المناقب والكرامات، ضمن كتاب الأسطوغرافية والأزمة، يوم دراسي:25 فيفري 1989م، منشورات كلية الآداب، الرباط، طبع مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1994، ص25-26.

(41)-Levi Strauss: Anthropologie Structurale, Paris, 1958, p.254-255.

(42)ــ علي زيعور: الكرامة الصوفية، الأسطورة والحلم، طبعة بيروت، 1978، ص83.

(43)ــ إبراهيم القادري بوتشيش: واقع الأزمة والخطاب الإصلاحي، ص22.

(44)-النوازل الفقهية والمجتمع، ص 200.

(45)-البستان، ص79-80.

(46)- هذه الفترة بالنسبة للمرحلة الأولى من حكمة، أما المرحلة الثانية فحكم فيها في الفترة الممتدة ما بين 831-833هـ/1430-1432م.

(47)- التنسي: نظم الدر، ص236. الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم): تاريخ الدولتين، ص109-110.

(48)- هذا بالنسبة للمرحلة الأولى من فترة حكمه، وقد حكم في المرحلة الثانية ما بين 833-834هـ.

(49)- مما اضطر السلطان الحفصي إلى إرسال قائد وحاكم قسنطينة جاء الخير لتأديبه، لكنه فشل، وانهزم الجيش الحفصي. (التنسي: نظم الدر: ص243-244. الزركشي: تاريخ الدولتين، ص111.)

(50)- حسب التنسي (في نظم الدر، ص244-245) استرجع عبد الواحد عاصمته منذ شهر رجب 831هـ/أفريل-ماي 1428م بمساعدة الأعراب وتدخل جديد من طرف أبي فارس نفسه.

(51)- التنسي: نظم الدر، ص245-246.

(52)- نفسه ، ص246.

(53)-النص الثاني لابن مريم: البستان، ص136-137. والمعني بإفساد حملة السلطان الحفصي دون تحديد لاسم هذا السلطان.

(54)- التنسي: نظم الدر، ص236؛ الزركشي: تاريخ الدولتين، ص109-110، ص246.

(55)- البستان، ص136.

(56)- البستان، ص138.

(57)- عبد الباسط بن خليل: الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، ص156؛برنشفيك:تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ص 290-291.

(58)-الزركشي: تاريخ الدولتين، ص108. عبد الباسطبن خليل: المصدر السابق، ص156.

(59)- برنشفيك: المرجع السابق، ج1، ص290-291.

(60)- ابن مريم: البستان، ص94.

(61)- شارل كارلوس الخامس، هو المعروف في التاريخ الأوروبي باسم شارلكان؛ عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، (دراسة سياسية وعمرانية واجتماعية وثقافية)، دكتوراه دولة، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1995، ص74.

(62)- حسن الوزان: وصف افريقيا، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر. ط2، دار الغرب الإسلامي ـــ بيروت 1983 ، ج2، ، هامش رقم (66)، ص39؛ أحمد بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي بو عبدلي، اعتنى به عبد الرحمان دويب، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر 2013، ص458.

(63)- أحمد التوفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492- 1792، الجزائر، ص49.

(64)ــ عبد العزيز فيلالي:المرجع السابق، ص76.

(65)ــيحيى بوعزيز: المراحل والأدوار التارخية لدولة بني عبد الواد الزياتية، مجلة الأصالة، العدد 2، جويلية/أوت 175، ص24.

(66)- محمد فتحة: النوازل الفقهية، ص201.

تاريخ الإيداع: 2016/01/03 تاريخ القبول:2016/06/30